

## المرأة الأوروبية في العصور الوسطى والمرأة العربية في الجاهلية

من المفيد - فيما يبدو لنا - أن نوازن بين المرأة العربية والمرأة الأوروبية في القرون الوسطى ، وأن نرسم الصورة المادية والمعنوية لكاتيهما ، وأن ندرس حالة كل منهما في الزواج كذلك . وسوف تعيننا هذه المقارنة على تفهم حال المرأة العربية ، تلك الحال التي لم تكد تتحسن منذ القرن السابع . ولعل المرأة الأوروبية - إذ تتذكر في أى درك كانت تتخبط حوالى القرن الثانى عشر - تحس بمزيد من العطف على أخواتها في الشرق ، وتساعدهن في اجتياز تلك المراحل الصعبة . التى ما زال عليهن أن يقطعنها حتى يبلغن الدرجة التى بلغتها هى في المجتمع الحديث ؛ وإنها لكريمة القلب ، خليقة بأن تمد يد العون لرفيقاتها التعسات ، وتقودهن قيادة سمحة يقظة في طريق التحرر . ولئن لاحظت الشرقية بدورها أن الأوربية لم تكن دائماً كما آلت إليه الآن ، فإنها لن تقنط من أن تفلح يوماً في أن تضيف إلى فتمتها الطبيعية ألوان الزينة العقلية . وأن تبارى بنات الغرب في المعرفة والفضيلة ، كما نافستهن على مر الزمن في التلطف والجمال والتعالى . وإن قصص الفروسية وأشعارها لعامرة بصور النساء والفتيات .

ونستطيع إذا استوحيناها أن نتمين نموذج المرأة الذي كان رائجاً خلال العصور الوسطى وخاصة في فرنسا ، وذلك مثلاً كما توحى به اللوحة التالية: سواء كانت تدعى «الاييس» أو «إيجلانتين» أو «بلانشفلور» فهي بيضاء وردية ، كزهرة اللوتس ووردة الربيع ، شعرها من ذهب مجدول ، وجيدها كالعاج مصقول ، يعلوه وجه منتظم القسماست مستدير ، بشرق بجهة بيضاء ملساء كالبلور . وعيناها كلون البحر مرحتان باسمتان ، يزينهما حاجبان منفرجان ، فلا تقلان عن عيني الصقر جمالا . وهي كأنها الطفل ، شفتاها كنور الخوخ ، دقيقة الفم ، منظومة الأسنان ، عطرة الأنفاس كبخرة تنهوج أمام المذبح . وذراعاها أقرب إلى الطول ملفوفتان ، ويداها بديعتان بيضاوان ، وقداها رشيقتان . نحيلة الخصر ، ناهدة الصدر ، منخفضة الأوراك ، ممشوقة القوام (١) . .

ويقابل هذه ، لوحة عربية من القرن السابع ، أسوقها إليكم دون أن ألمسها . . . ولعلنا نلاحظ بالمقارنة بينهما — إذا استثنينا سمرة العربية وشقرة الفرنسية — قوة التشابه بينهما إلى حد أوقع الفرنسيين والعرب في لبس ، وإن كانوا به سعداء . وتروى لنا قصص الفروسية وأخبار الحروب الصليبية أكثر من مغامرة عاطفية نرى فيها فرساناً مسيحيين يقيمون بسيدة عربية ، كما نرى «بلانشفلور» و «إيجلانتين» بل والملكة «اليونور» ذاتها يؤثرن بحظوتهن بطلا عربياً عريق النسب ، كريماً . . . ولكن لنعد إلى لوحتنا :

(١) انظر جوتييه ، ص ٣٧٥ وما يليها .

عند ما أراد الحارث بن عمرو بن حجر ملك الكنديين ، أن يطلب يد الخنساء بنت عوف - وقد سمع آيات الثناء على جمالها - أرسل إليها امرأة محنكة داهية ، وهو يقول لها : « اذهبي وجدى في أن تصفى لى بنت عوف هذه التى يتحدث الناس بها » . فكان ما قالته تلك المرأة الخبيرة بالمفاتن المليكها ، عن الخنساء بعد إذ عادت من لديها<sup>(١)</sup> : « رأيت جبهة كالمرآة الصقيلة ، يزينها شعر حالك كأذئاب الخيل المضفورة ، إن أرسلته خلته السلاسل وإن مشطته قلت عناقيد كرم جلاها الوايل . ومع ذلك حاجبان كأنهما خطا بقلم أوسودا بحم ، قد تقوسا على مثل عين الطيبة العبرة<sup>(٢)</sup> التى لم يرعها قانص ولم يذعرها قسورة ، بينهما أنف كحد السيف المصقول ، لم يخنس به قصد ولم يمض به طول ، حفت به وجنتان كالأرجوان فى بياض محض كالجمان ، شق فيه فم كالحاتم ، لذيد المبتسم فيه ثنايا غر ذوات أشر ، وأسنان تبدو كالدر وريق كالخمر له نشر الروض بالسحر ، يتقلب فيه لسان ، ذو فصاحة وبيان ، يبين به عقل وافر ، وجواب حاضر ، تلتقى دونه شفتان حمراوان كالورد ، يجلبان ريقاً كالشهد . تحت ذلك عنق كابريق الفضة ، ركب فى صدر تمثال دمية ، يتصل به عضدان ممتلئان لحماً ، مكتتران شحمأ ، وذراعان ليس فيهما عظم

(١) العقد الفريد ج ٦ .

انظر يرون : النباء العربيات ص ٥٢٥ .

(٢) الجامعة للحسن .

يحس ، ولا عرق يجس ، ركبت فيهما كفان دقيق قصبهما ، لين عصبهما ،  
تعتقد إن شئت منهما الأنامل ، وتركب الفصوص في حفر المفاصل . وقد  
تربيع في صدرها حقان كأنهما رمانتان ، من تحت ذلك بطن طوى كطى  
القباطى (١) المدججة (٢) ، كسى عكنا (٣) كالقراطيس المدرجة ، تحيط  
تلك العكن بسرة كمدهن العاج المجلو ، خاف ذلك ظهر كالجداول ،  
ينهى إلى خصر لولا رحمة الله لانخزل (٤) تحته كفل يقعدا إذا نهضت  
وينهضها إذا قعدت كأنه دعص (٥) رمل لبده سقوط الطل ، يحمله فخذان  
لفاوان ، كأنهما نضيد الجمان ، تحملهما ساقان خدلتان (٦) كالبردى  
وشيتا بشعر أسود كأنه حلق الزرد ، ويحمل ذلك قدمان كحذوة (٧)  
اللسان تبارك الله مع صغرها كيف تطيقان حمل ما فوقهما . . . . .

وحسبنا هذا « الجرد القانوني » الشاعرى الدقيق ، الذى قامت به عربية  
من العصر الجاهلى ، لتبيان العناصر التى كانت - وما زالت - تؤلف  
جمال امرأة ؛ فإن الذوق لم تتغير قواعده كثيراً فيما يختص بهذا الموضوع ..

(١) نوع من الثياب المنسوبة إلى قبض مصر .

(٢) الملفوفة .

(٣) عكن : مفردة : عكنة بالضم ، ما انطوى وتثنى من لحم البطن سناً .

(٤) المراد : أنه خصر دقيق رقيق .

(٥) الدعص : قطعة من الرمل مستديرة ، أو الكشيب منه .

(٦) مثلثتان .

(٧) الحذوة : قطعة الأحم .

وهذا هو عربي من غطفان يصف للخليفة عبد الملك بن مروان (٦٨٥) -  
 (٧٠٥) ما ينبغي الكلف به من محاسن النساء ، فلا نكاد نرى فيما وصف  
 أدنى اختلاف عما سبق ، يقول العربي (١) :

« خذها يا أمير المؤمنين ملساء القدمين ، درماء (٢) الكعيعين ، مملوءة  
 الساقين ، جماء (٣) الركبتين ، لفاء الفخذين ، ناعمة الأليتين ، منيفة  
 المأكتين (٤) ، بداء الوركين ، مهضومة الخصرين ، ملساء المتنين (٥) ،  
 مشرقة ، مفعمة (٦) العضدين ، فخمة الذراعين ، رخصة (٧) الكفين ،  
 ناهدة الثديين ، حمراء الخدين ، كحلأ العينين ، زجاء (٨) الحاجبين  
 لمياء (٩) الشفتين ، بلجاء (١٠) الجبين ، شماء العينين (١١) ، شنباء (١٢)  
 الثغر ، حالكة الشعر ، غيداء (١٣) العنق ، عيناء العينين ، مكسوة البطن

- (١) العقد الفريد ج ٦ ص ١٠٨ .
- (٢) داراها اللحم .
- (٣) كثير لحمها .
- (٤) المأكمة لحمة على رأس النورك .
- (٥) المراد ناعمة الظهر .
- (٦) تثلثتها .
- (٧) قاعمتها .
- (٨) حاجباها دقيقان طويلان .
- (٩) فيهما سمرة .
- (١٠) مشرقة مضيئة .
- (١١) العينين : الأنف .
- (١٢) عذبة الأسنان .
- (١٣) يعيل وينشئ ليناً .

ناتئة الركب (١) .

والآن وقد قدمت لكم المرأة العربية ، والمرأة الفرنسية في القرن الثاني عشر ، وكلتاها حسناء مرحة رشيقة لطيفة ، فلعلكم ترغبون في أن تتوثق معرفتكم بهما ، فتقفون على ذوق كل منهما ومزاجها ومشاعلها ، وتنفذون إلى أعماق قلبها ونفسها ، حتى تتحققوا من أن ذلك الغمد الثمين إنما يضم سيفاً نفيساً وأن ذلك الحسن الطبيعي البادى يوازنه حسن أخلاق كريم .

وإنه لمن العسير دائماً أن ترسم صورة أخلاقية ، ولا سيما إذا كانت صورة امرأة ، ومع ذلك فسنحاول هذا الأمر مبتدئين بالمرأة الفرنسية :

تلك التي تفتن العيون من أول نظرة وتحظى بجم الثناء ، يود الناظر إليها أن يعترف لها جملة بجميع المكارم والفضائل . ولكننا إنصافاً للحق نقول : ليس الكمال من شيمة البشر ، ولقد كان للفتاة الفرنسية - في العصور الوسطى - مثالب ، حولتها طبيعتها الصريحة الحميلة إلى محاسن جزلة محببة. يقول جوتييه : « إذا رجعنا إلى شهادة الشعراء القدامى ، نجد أن الفتيات وقحات مستهترات لا يطعن إلا عنف الغريزة ، ويبدو أن المثل الأعلى الذي اتخذته أسوة لمن هو ابنة شرلمان » (٢) .

وينظر « مازوى » في الأمر عن كسب فيقول : « كثيراً ما تذكر

---

(١) الركب : الفرج أو ظاهره .

(٢) جوتييه (Gautier) الفرنسية . تعليق ص ٣٧٨ .

قصص الفروسية أن العرف كان يقضى بأن تعدم المرأة أو الفتاة التي تهتم بسوء السيرة. ولقد كان من النافع في أثناء القرن الثاني عشر وإلى الرابع عشر - وهي عصور اضطراب وانحلال في العائلة - أن يوضح الآباء للأبناء عبرة ذلك العقاب الذي خص به الأجداد الحب الآثم . . . ويبدى المؤرخون والشعراء أساهم وحسرتهم على حياة ربات القصور المنحلة ؛ فهنا فتيات يتبعن عشاقهن إلى خيامهم ، وهناك سيدات عريقات يستضفن فرساناً ويصلنهم كلما أغنى أزواجهن . . . ولقد كانت تتردد في كل مكان أغنية تقول : « تباً للزوج الذي يدوم شهراً أو شهرين طويابين » (١) .

ويا لها من أخلاق فاسدة ، وإن كنا نرى أن النساء لا يحملن من وزرها إلا قدرأ حيناً؛ إذ هن إنما ينسجن سلوكهن على منوال سلوك الرجال أو هواهم . وقد اعتدنا أن نقول كلما ارتكب جرم : « فتمش عن المرأة » ، فما بالنالنا نقول حينما تخطيء المرأة : « فتمش عن الرجل » ؟ فإن ذلك ليكون أكثر عدلاً وإنصافاً .

وكيف يقال إن « الفتيات وقحات مستهترات » ؟ ومن المذنب الحقيقي وقد كان من الواجبات المفروضة عليهن أن يدلكن ضيوف آبائهن حتى يناموا ؟ يقول « ب . ماير » : « كان التدليك أثناء الرقاد عنصراً من كرم

(١) مازوى (Mazuy) : ترجمة « رولان الثائر » لأريوست ، ص ٢٢ .

الضيافة قديماً . وكانت شئون الضيافة من نوم أو استحمام متروكة للنساء . ولكننا نستطيع أن ندرك كيف أدت تلك الحفاوة — التي كانت في الأصل عناية صحية خالصة — إلى العبث في مجتمع كان أقل من مجتمعنا تحرجاً إزاء بعض الأمور ، لا بالأقوال فحسب ، بل وبالأفعال كذلك . . . » (١)

ولعل المؤرخين والشعراء لو درسوا نظام الزواج في عهد الإقطاع ، لكفكفوا أساهم وحسرتهم على حياة ربات القصور المنحلة — كما يعبرون — ولا تمسوا لهن العذر . . .

فلقد كان من شأن النظام الإقطاعي في الواقع ، أن يؤثر في الزواج تأثيراً سيئاً . إذ لم يكن الإقطاع — وهو « قطعة من الأرض تنهض بمسئولياتها خدمة عسكرية » — مما يتولى أمره النساء وهن لا يصلحن بطبيعة الحال للقيام بالحرب . ولما كان الدفاع عن الإقطاع أمراً هاماً ، فقد كان على الوارثة — فتاة كانت أو امرأة ناضجة — أن تتخذ لها زوجاً يصبح بالوكالة قائماً بأداء واجباتها . ولقد كان الزواج الشرعي فرضاً على الفتاة ، منذ تبلغ الثانية عشرة من عمرها ( وذلك من ناحية المبدأ ، إذ أنهم كانوا يزوجون الأطفال في الخامسة أو السادسة ) وعلى الأرملة كذلك ، منذ أن ينقضى على وفاة زوجها النبيل ثلاثة أشهر أو ثلاثين يوماً فقط في بعض الحالات . يقول شاتوبريان : « لم يكن بد لوارثة عريقة النسب من أن

---

( ١ ) ب . ماير ( P. Meyer ) : رومانيا ، الجزء الرابع ، ص ٣٩٤ .

تتزوج لضمان تصريف الأمور في الإقطاع ، كما نرى اليوم النساء المشتغلات بالتجارة يتزوجن كبير عمال المتجر إذا مات الزوج ليتصل نشاط المؤسسة « (١) .

على أن المرأة المشتغلة بالتجارة تتمتع اليوم بحرية الاختيار، بينما كانت الإقطاعية التابعة ملزمة أن تتزوج كما يريد لها الأمير ؛ فكان يحدث أن تخير بين ثلاثة فرسان ، هم مجرد ثلاثة أسماء ، غير أنها كانت في أكثر الأحيان تسلم هي وما ملكت يداها لأحد المقاتلين الذين يرغب الأمير في أن يكافئهم على حسن بلائهم . فكيف كان يمكنها إذن أن تحب هذا الرجل الذي قد فرض عليها فرضاً ؟

ولقد كان الطلاق يتم بتلك السهولة نفسها . فلقد «كان من المحرم عقد الزواج بين من تجمعهم القربى حتى الدرجة السابعة» - وذلك قبل انعقاد مجتمع لاتران سنة ١٢١٣ - وقد أباح هذا المجمع الزواج حتى الدرجة الرابعة . غير أن هناك روابط القربى الروحية التي كان حكمها كحكم القربى الصحيحة . فكان يحدث أن يكتشف الزوجان فجأة بعد انقضاء بضع سنين على زواجهما ، أنهما قريبان ، مما يوجب الطلاق حرصاً على الأخلاق الفاضلة والدين « (٢) .

ورب قائل يقول عن تلك العصور: إنها كانت إذن عصور اضطراب

(١) تحليل وشرح لتاريخ فرنسا . ص ٨٩ .

(٢) جوتييه : المرص السابق ذكره .

واختلال في العائلة ! وهو على حق في تساؤله ؛ إذ كيف يتوفر لها أن تكون حينئذ على غير ذلك وقد كان الزواج ينعقد ثم ينحل على النحو الذي رأيناه ، والرجال لا يضمنون للنساء احتراماً بل يزدرونهن أعمق الازدراء ؟ لقد كانوا يفضلون عليهن جواداً كريماً (١) ، أو طعنة نجلاء تسددها حراهم . وكانوا يرددون دائماً أن « من البلخون أن تثق بامرأة » ، « وأن الندم عاقبة من يمعن في تصديق امرأته » وأن « المرأة وثمرة الشمام لا يمكنك معرفتهما جيداً » ! إلى غير ذلك من الكلمات اللادعة . بل لقد كانوا يمنعون المرأة من أن تتقدم أمام القضاء أو أن تعقد عقداً دون موافقة زوجها . وفوق ذلك ، حمل الذكاء الشارع على أن يخصص حالتين يجوز فيهما للزوج أن يضرب زوجته : وهما « حالة الزنا وحالة عصيانها لإرادة البارون » . وكان العرف أرحب صدرأ . . إذ نرى الإمبراطور بيبان (Pépin) - في قصة (موت جازان) ص ١٠٢ - يضرب زوجته حتى ينزف الدم من أنفها ، لأنها طلبت منه أن يغيث أهل « اللورين » ، وهي راضية بهذا العقاب الجائر ، بل ونسمعها تسأل زوجها في ذلة أن يضربها ما طاب له الضرب ! . . ولا شك في أن رعايا الإمبراطور كانوا يقتدون به في هذا الشأن ، ويتخذون من مسلكه مثلاً أعلى يحتذونه . وتشهد بذلك

---

(١) ديميه (Demay) ص ٤٢ : « كان الاعتقاد المأثور بنقص الأنثى سائداً في الفروسية . فكان الفرسان لا يعتدون إلا بالحصان ، وينبذون الفرس ويتركونها للأعمال العادية . وكان من العار على الفارس أن يمتطى صهوة فرس . »

تلك الحكمة التي صاغها « لرودى لانسى » (Leroux de Lincy) في  
العبارة التالية :

« إذا ضربت زوجتك مرة نهقت ، وإذا ضربتها مرتين صممت » .  
وبالرغم من تلك الحطة التي لا سبيل إلى إنكارها ، فإن المرأة قد  
استطاعت - بفضل دهاؤها ومثابرتها - أن تصبح شريكة الرجل ، وقسمه  
ورفيقته ونظيرته ، ثم أفلحت بالسعي رويداً رويداً في أن تسم العصور  
الوسطى بطابعها ، وأن تخفف بلطفها عنت تلك القرون ، قرون السنان  
والطعان . فاستأنست المقاتل الجلف وروضته ، وسحرته وهذبه ، وجعلته  
في آخر الأمر يسجد عند موطن قدميها مؤمناً ورعاً يبتهل للحب والجمال .  
فخذن العظة يا نساء الشرق وتعامن ، يا من تقررن مصير الأرض !

\* \* \*

ولسنا في حاجة إلى الإغراق في أبحاث علمية كى نحدد الدائرة التي  
تنحصر فيها معارف المرأة العربية . فقد كانت الخيمة مدرستها ، والطبيعة  
أستاذها ، وهي تخطيط وتنسج ، وتعني بشئون بيتها ، وتربي أطفالها ، وتعني  
لهم حتى يناموا . وهي تعرف الأنساب كما سمعتها على لسان أبيها ، فتذكر  
تاريخ القبيلة الجيد ، وسلسلة الأجداد ، ومواقف الأبطال ، وجيد الأشعار .  
وهي بتطلعها إلى السماء ومراقبة السائمة ، استطاعت أن تلم بسير الكواكب  
وطبائع الحيوانات الأليفة وتكوين أجسامها ، وأن تميز النباتات الطيب من  
الخليث . وهي تشترك في أعياد القبيلة ومآتمها ، فتعرف كيف تثرئ في

نبرات رخيمة مؤثرة بطلا من أهلها كان أباً لها أو زوجاً أو ولداً أو أخاً .  
وهي فصيحة بفطرتها تضيف كلماتها إلى روعة ما تتحدث عنه روعة  
وسحراً ، فيصفي إليها الرجال خاشعين مفتونين .

والعربية عفيفة حرة أبية ، نافرة . وهي ابنة مطيعة ، وأخت  
ودود ، وزوجة حانية ، وأم متباهية ، تحب أمجاد البطولة في الحرب ،  
وتحب التضمخ بالمساحيق والعطور . وهي ذات دل تستخدم مفاتها  
لإثارة الحماسة وإلهاب الحمية ، وإلهام الشعراء ، وإحداث البطولات  
وصنع الأبطال. وفي سبيل استرضائها، والفوز بإعجابها وحبها، وحماتها<sup>(١)</sup>  
يصبح المرء فارساً كاملاً ومقاتلاً لا يعتره خوف ، وشاعراً مفلحاً ، وجواداً  
متلافاً ، وعاشقاً متياً . وهكذا كان لكل بطل من أبطال العرب الأقدمين  
امرأة يدين بحبها ، وكانت قصائدهم التي تنغني بمعمعة الوغى ونشوة النزال  
تبدأ بتحية أو بابتسامة يرسلها الشاعر لحسنائه . وقد بلغ من تمكن عادة  
التودد هذه أن أصبحت - قبل الإسلام بزمن طويل - قاعدة تكاد تكون  
ثابتة في قرض الشعر . فقد كان من اللازم حينئذ أن تضم كل قصيدة

---

(١) فقد وقف ربيعة في مدخل شعب قديد رغم جراحه لحماية قافلة النساء التي  
كادت تقع في أسر العدو حتى تحققت لها النجاة وقضى هو نجه على صهوة جواده والريح  
في يده .

وفي يوم ذي قار (عام ٦١٤) بين البكرين والعمم وقد كانت النساء في مؤخرة الجيش  
العربي لإثارة حمية الرجال ، قطع حنظلة أربطة الهوادج حتى يستميت كل بكري في قتال  
عدوه وحماية امرأته التي لم يعد من منجى لها .

(قديمة أو حديثة) أبياتاً خاصة في الإشادة بمحاسن الحبيبة وعهد وصالها أو الشكوى من تدللها وصدودها . وقد جرى الشعراء على الاستهلال بهذا النسب . وفيما يلي بعض الأمثلة لذلك ، وقد اخترناها من المعلقات السبع ، وهي أروع القصائد العربية في العصر الجاهلي ، وقد اتخذت نماذج للشعر التقليدي .

يقول امرؤ القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل      بسقط اللوى بين الدخول فحومل

.....

.....

وإن كنت قد أزمعت صرعى فأجملى  
وأنتك مهما تأمرى القلب يفعل ؟

أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل  
أغرّك منى أن حبك قاتلي

.....

.....

فسلى ثيابي من ثيابك تنسل  
بسهميك في أعشار قلب مقتل

وإن تك قد ساءتلك منى خليقة  
وما ذرفت عينك إلا لتضربني

وقال طرفة :

مظاهر سمطى<sup>(٤)</sup> لؤلؤ وزبرجد

وفي الحى أحوى<sup>١</sup> ينفض المرد<sup>٢</sup> شادن<sup>٣</sup>

(١) في شفتيه سمة .

(٢) الفصن من ثمر الأراك .

(٣) الغزال .

(٤) خيط العقده .

تناول أطراف البرير<sup>(٢)</sup> وترتدى  
تخلل حر الرمل دعص<sup>(٣)</sup> له ندى  
أسف ولم تكدم عليه بإثم<sup>(٥)</sup>  
عليه نقي اللون لم يتخدد

خذول تراعى ربربا بخميلة<sup>(١)</sup>  
وتيسم عن ألمى كأن منورا  
سفته أباة<sup>(٤)</sup> الشمس إلا لثاته  
ووجه كأن الشمس حلت رداءها

وقال زهير :

بجومة الدراج فالتمسلم  
.....  
ألا انعم صباحاً أيها الربع واسلم

أمن أم أوفى دمنه لم تكلم  
.....  
فلما عرفت الدار قلت لربعها

وقال عنتره :

وعى صباحاً دار عبلة واسلمى  
.....  
زمت ركابكم بليل مظلم  
.....

يا دار عبلة بالجواء تكلمى  
.....  
إن كنت أزمعت الفراق فإنما  
.....

- 
- (١) تركت أولادها وذهبت ترى مع صواحبها في هذه الخميلة .
  - (٢) ثمر الأراك البالغ ( أى تتناول أطراف الأراك وترتدى بأغصانه ) .
  - (٣) كتيب الرمل .
  - (٤) شعاعها .
  - (٥) الكدم . والكدم : الغض .

إذ تستبيك بذي غروب واضح      عذب مقبله لذيذ المطعم  
وكان فارة<sup>(١)</sup> تاجر بقسيمة      سبقت عوارضها إليك من الفم  
أو روضة أنفا تضمن نبتها      غيث قليل الدمن ليس بمعلم

وقال لييد :

شافتك ظعن<sup>(٢)</sup> الحى حين تحملوا      فتكنسوا<sup>(٣)</sup> قطناً تصر خيامها  
بل ما تذكر من نوار وقد نأت      وتقطعت أسبايها ورمامها<sup>(٤)</sup>  
مرية حلت بفييد<sup>(٥)</sup> وجاورت      أهل الحجاز فأين منك مرامها  
فاقطع لبانة<sup>(٦)</sup> من تعرض وصله      ولشر واصل خلة<sup>(٧)</sup> صرامها<sup>(٨)</sup>

وقال عمرو بن كلثوم :

تريك إذا دخلت على خلاء      وقد أمنت عيون الكاشحيننا

(١) المقصود رائحة المسك .

(٢) المقصود نساء القبيلة .

(٣) المقصود دخلن المودج .

(٤) جمع الرمة وهي قطعة من الحبل خلقة ضعيفة .

(٥) اسم بلدة .

(٦) الحاجة .

(٧) المودة والحليل .

(٨) قطاعها .

هجان (٢) اللون لم تقرأ جنينا (٣)

وكشحا قد جنتت به جنونا

يرن خشاش حليهما زينا

.....

أضلته فرجعت الحنينا

وأيت حمولها أصلا حدينا

رب ثاو يمل منه الشواء

ء فادنى ديارها الخلصاء (٨)

ق فتاق فعادب فالوفاء (٩)

ب فالشعبتان فالأبلاء (١٠)

اليوم دلها (١١) وما يحير البكاء (١٢)

ذراعى عيطل (١) أدماء بكر

ومثنى لدنة سمقت وطالت

وساريتى (٤) بلنط (٥) أو رخام

.....

فما وجدت كوجدى أم سقب (٦)

تذكرت الصبا واشتقت لما

وقال الحارث :

آذنتنا بينها أسماء

بعد عهد لنا ببرقة (٧) شها

فالحياة فالصفاح فأعنا

فرياض القطا فأودية الشر

لا أرى من عهدت فيها فأبكى

(١) الناقة الطويلة العنق البيضاء .

(٢) الأبيض الخالص البياض .

(٣) لم تحمل .

(٤) الاسطوانة .

(٥) العاج .

(٦) السقب : ولد الناقة .

(٧) هذه كلها مواضع عهد بها .

(٨) الدله : ذهب العقل .

(٩) المراد : أن البكاء لا يفيد ولا يرد شيئا .

وعلى الرغم من ذلك ، فقد كانت المرأة الجاهلية في منزلة تُحسب أذى من منزلة الرجل . فلقد كانت في حماه وكأنها متاع يمتلكه . وكانت تخضع لسلطة أبيها ، وفيما بعد لسلطة أبنائها ولا سيما ابنها الأكبر . غير أن هذه السلطة التي تكبحها العاطفة ، كانت حملا هين الوطأة على المرأة .

ولم تكن تبعية المرأة في أكثر الأحيان إلا عنواناً ضخماً يرضى به الرجل غروره . فلقد كانت للعربية في الواقع شخصيتها ؛ فهي باسلة شجاعة ، وما كانت لتبكي موتها حتى يثأر بهم ، وكانت تتبع زوجها إلى ميدان القتال (١) تحمل الماء لتسقى المحاربين ، وتقرع الدف ليستر الضجيج حشرجة المحتضر ويحث الرجال على التناحر ، وتعنى بالجرحى ، بل وكثيراً ما كانت تشترك في المعركة وفي النصر اشراكاً إيجابياً حاسماً . والأمثلة لذلك عديدة ، أسوق منها موكباً من البطلات إن شئتم :

فهاتان هما ابنتا الشاعر البكري ، عذراوان حسناوان نافرتان ، تريان

(١) من معلقة عمرو بن كلثوم :

على آثارنا بعض حسان	نحاذر أن تقسم أو تهونا
أخذن على بعلتهن عهداً	إذا لاقوا كتاب معلينا
ليستلين أفراساً وبيضاً	وأسرى في الحديد مقرنينا
.....	.....
إذا مارحن يمشين الهويني	كما اضطربت متون الشاربينا
يقتن جيادنا ويقلن لثم	بعولتنا إذا لم تمنعونا
ظعائن من بنى جشم بن بكر	خلطن بميم حسب وديننا

في « يوم النواصي » كتائب قبيلتهما متخاذلة ، فترتيمان في معمعة الوغى ،  
عاريتين تقريباً ، وترتجلان صيحات رائحة ... وبالسطوة الجمال وصنعه ،  
فإن النصر يذعن لسحر الفارستين الحسناوين وينتظم منصاعاً في صف  
البكريين .

وهذه عمرة بنت علقمة التي تلقفت الراية حين سقطت في وطيس  
موقعة أحد ، ونشرتها ، وهي تسخر من المقاتلين المترددين حتى تقودهم إلى  
الظفر .

وفي موقعة أحد ذاتها تنشد هند :

نحن بنات طارق إن تقبلوا نعانت  
ونفـرش النـمـارـق أو تدبروا نفارق  
فراق غير وامق

وكان النساء في مؤخرة الجيش يرددن ترديد الجوقة ، وهن يقرعن  
دفوفهن :

ويها بني عبد الدار ويها حماة الأديار  
ضرباً بكل بتار

وهذه أيضاً أسماء بنت أبي بكر ، حوصر ولدها في مكة ( نحو  
سنة ٦٩٢م ) وخطر له أن يستسلم إذ نضبت موارده ونخشى أن يمثل به

الأعداء بعد أن يقتلوه . . فجاء إلى أمه يطلب الرأي لديها، فأبت عليه التسليم قائلة : « يا بني ، عش عزيزاً أومت وأنت كريم ، ولا يهمنك ما يفعلون بك بعد موتك ، فإن الشاة لا يضيرها بعد ذبحها أن تسلخ . . »

وحين جرح ربيعة في معمة الوغى ( فيما بين سنة ٥٨٠ سنة ٦٠٠ م ) اضطر إلى أن يلحق بركب النساء وهو يقول لأمه « أم سيار » : « ضمدي جرحي . فلقد أصابوا منك مقتلاً في ولدك » فأجابته الأم : « لهني عليك ، ولكننا هكذا نفقد أشجع حماتنا . ونحن وإن كنا لا نرى كارثة أشد منها ، إلا أنا قد اعتدناها » . وكانت وهي تضمد جرح ولدها الذي سألتها أن يشرب تقول له : « إذا شربت يا ولدي مت في الحال ، فعخير لك أن تمضي سريعاً لمهاجمة العدو » (١) .

ونحن نخشى إذا أكثرنا من إيراد الأمثلة لذلك ، أن يصبح حديث الشجاعة حديثاً معاداً ممجوجاً . ولقد صدق « لامارتين » إذ قال : « إن النساء بطبيعتهن يتحمنن تحمسن تحمس الشعراء ، ويستبسلن استبسال الأبطال » .

ولقد نشبت مئات الحروب وكان أول أسبابها امرأة . ولكن ذكرى هؤلاء النساء — وبينهن « هيلين » الحسنة — لم تكن بالذكرى الملعونة ، بل لأنها للذكرى عطرة ، تنشر في جو القتال المقدس شذى الشهامة الكريمة . فما كان المحاربون يشنون الحرب لرد امرأة إلى زوجها ، بل لحماية

( ١ ) كوسان دي برسفال ، الجزء الأول ، ص ٥٤٥ .

ضعفها ، والدود عن فضيلتها ، ووقاية شرفها وعرضها من كل دنس .  
لقد شن البكريون على التغليبين حرباً ضروساً دامت على أقل تقدير  
أربعين عاماً ، وكانت تلك هي حرب البسوس التي كان من سببها  
أن « البسوس » خالة جساس بن مرة ، أطلقت ناقها ، فوردت ماء  
كليب بن وائل وسط إبله ، فصرعها ، فاستنجدت ، فهب جساس إلى  
نجدتها ، فصرع كليباً . . وثارت تلك الحرب التي اشتهرت « بحرب  
البسوس » واستمر أوارها كما ذكرنا أربعين عاماً ( سنة ٤٩٤ - ٥٣١ م ) .  
كما كان سبب قيام حرب الفجار الثاني ، أن فتية قعدوا إلى امرأة من  
بني عامر بن صعصعة وضيفة ، بسوق عكاظ ، وكان عليها برقع وهي في  
درع فضل ، فأعجبهم ما رأوا من هيئتها فسألوها أن تسفر عن وجهها  
فأبت عليهم ، فأتى أحدهم من خلفها فشد دبر ثوبها بشوكة إلى ظهرها  
وهي لا تدري ، فلما قامت تقلص الثوب عن دبرها فضحكوا وقالوا :  
منعتنا النظر إلى وجهها فقد رأينا دبرها . . فنادت المرأة : يا لعامر !  
فتحاور الناس وكان بينهم قتال ودماء يسيرة ، فحقنها حرب بن أمية  
وأصلح بينهم ( ٥٨٠ م ) (١) .

ولحرب « البراق » كذلك أصل رواي رافع : فقد بلغ أسماع كسري  
ملك الفرس ثناء جم على جمال ليلي العفيفة ، فقرر أن يضيف إلى كنوز  
« حريمه » درة بنى ربيعة هذه ، وأرسل وفدأ تحف به فرق غفيرة من الجند

(١) العقد الفريد ج ٥ ص ٢٥٢ . (تحقيق)

يطلب إلى « لكيز » يد ابنته ليلي - وكان العرب يعتبرون مصاهرة الأجنبي عاراً أى عار ، حتى ولو كان أميراً أو ملكاً - فرفض لكيز مطلب كسرى ، فاختطف جنوده ليلي واقتادوها إلى بلاد فارس . وهناك منحت قصرأ تستريح فيه من وعناء السفر واضطراب النفس . وسعى أهل القصر بكل وسيلة ليحملوها على معاشرة الملك . . . يتوسلون باللين تارة ، وبالوعيد أخرى ، ثم بالوان الإرغام والحرمان أخيراً . ولكنهم لم يفلحوا في التأثير على الحسنة الثائرة العنيدة ، التي انبعثت أناتها في أبيات بسيطة رقيقة تخاطب فيها ابن عمها وحبيبها البراق وقبيلتها بنى ربيعة قائلة :

ليت للبراق عينا فترى	ما ألقى من بلاء وعنا
يا كليبا وعقيلنا إخوانى	يا جنيدأ أسعدونى بالبكا
عذبت أحتكمو يا ويلكمو	بعذاب التكر صبحا ومسا
قيدونى غللونى ضربوا	لممس العفة منى بالعصا
يكذب الأعجم ما يقربنى	ومعى بعض حشاشات الحيا
قيدونى غللونى وافعلوا	كل ما شتم جميعأ من بلا
فأنا كارهة بغيكمو	ويقينى الموت شىء يرتجى
أحذروا العار على أعقابكم	وعليكم ما بقيتم فى الدنا

ولقد هزت هذه الأبيات مشاعر العرب وحركت عواطفهم ، فانضموا جميعاً إلى قبيلة بنى ربيعة وهبوا يحاربون الفرس . وبعد أحداث شتى ،

تم خلاص ليلى العفيفة ، وتزوجت الفتى الذى كان يحبها وكانت هي تحبه ، وهو ابن عمها البراق !

ولم تكن النساء لتقلل عن الرجال شجاعة وأريحية ونبلا .  
فهذه فاطمة أم الكاملين - حينما أسرت في غارة شنتها جماعة معاوية - تلتقى بنفسها من فوق ناقبها ، دافعة برأسها أولا ، وتنتحر ، إذ أبت على سوء حظها أن يلوث اسمها وأسماء أبنائها ، وآثرت الموت على أن تحوم ريبة حول عرضها ، فكانت أشد اعتزازاً بنفسها من « لوكريس ». وهذه ريثة - أرملة ربيعة - ترغم قبيلتها على أن تفرج عن دريد ، وتمنحه بنفسها ملابس وسلاحاً . ذلك أن دريداً في لقاء سابق ، كان قد أبدى مروءة نحو ربيعة ، فحرصت ريثة على أن تثبت له عرفانها بالجميل . وهذه الحسنة « بحيصة بنت عوف » ، فتاة في الخامسة عشرة من عمرها ، ترفض أن يتم زواجها ما اتصلت الحرب بين العبسين والذبيانيين ، ونسمعها ترد زوجها المتوود المثلث قائلة : « إنك لا تفكر إلا في لذة الزواج والاستمتاع به ، بينما العرب يتقاتلون ؛ ولقد كان أولى بك أن تسعى بين تلك القبائل المتعادية ، لترسى السلام بينها ، حتى إذا أدبت عمل الرجل النبيل الكريم الأصيل ، عدت فوجدت زوجتك وذقت أحلى متع الزواج » . فيسرع الحارث نحو القبائل المتعادية ، متحمساً لهذه الفكرة السامية ، مضطرم الوجدان ، تذكى جذوته أكرم العواطف ، ويفلح بحكمته في حمل القوم على إقرار السلام .

وإن من الظواهر ما يجلو لنا ملامح الشعوب : فلقد كان لليونان  
حكماء من الرجال ، وكان للعرب حكماء من النساء أيضاً ، ومنهن  
سكر بنت لقمة وجمعة بنت حابس ، وخصيلة بنت عامر ، وهند بنت  
القس ، وخزام بنت الريان . . .

ولقد روت لنا روما ذكرى أم « الجراك » التي كانت تفتخر بأن  
تشير إلى أبنائها وتقول : « ها هي ذى درى » . وإذا كانت « كورنيلي »<sup>(٢)</sup>  
أيضاً قد باتت مضرب المثل في روما ، فقد عرضت بلاد العرب أكثر من  
أم تضرب بها الأمثلة . لقد كان لدى العرب « الأمهات السعيدات » أي  
اللواتي أنجبن أبطالا . وقد حفظ لنا التاريخ ثناءه على ثلاث منهن : حية  
بنت رياح من قبيلة بني راني ، وماوية بنت مناة من قبيلة بني دارم ،  
وفاطمة امرأة زياد التي لقب أبنائها السبعة بنعوت الحمد ؛ فكان الأول  
يلقب بالكامل والثاني الوهاب والثالث أنس الفوارس والرابع البرد والخامس  
الحرور والسادس اللاحق والسابع الدارك<sup>(١)</sup> .

وقبل أن تظهر ندوات دار « رامبويه » (Rambouillet) بنحو  
عشرة قرون ، كانت لبلاد العرب خيماتها الأدبية والفنية حيث كان يحتكم  
أدباء العصر إلى امرأة من أهل الذوق والمعرفة . ولما كنا قد أسلفنا الحديث

---

(١) الأغاني ج ١٦ ص ١٩ .

عن الأحكام التي كانت تصدرها سيدات الغرب في محاكم الغرام ، فمن الإنصاف هنا أن نذكر مثلاً الحكم الذي أصدرته « أم جندب » في المفاضلة بين شاعرين كان أحدهما زوجها :

فقد كان علقمة بن عبدة من تميم معاصراً لامرئ القيس ، وينازعه الشعر ، فتحاكما مرة إلى أم جندب زوجة امرئ القيس ، فاقترحت عليهما أن ينظما قصيدتين من وزن واحد وقافية واحدة في وصف الخيل .. فنظم امرؤ القيس قصيدته التي مطلعها :

خليلي مرا بي على أم جندب      لنقضى لبانات الفؤاد المعذب

وكأنما أراد بهذا المطلع ، التأثير على زوجه بتحريك عواطفها .. بيد أن تأثير الحق على أم جندب ، كان أكبر ، فلم تحفل بإثارة العواطف ولا بالصلة الزوجية ؛ فلما سمعت قصيدة علقمة التي مطلعها :

ذهبت من الهجران في كل مذهب      ولم يك حقاً كل هذا التجنب  
حكمت له وأيدت حكمها بالبرهان ؛ ومن ذلك أن امرأ القيس لما وصف سرعة فرسه علق هذه السرعة على إجهاد الفرس بالسوط إذ قال :

فللسوط أهوب وللساق درة      وللزجر منه وقع أخرج مهذب

وأما علقمة فإن فرسه أدرك طريدهته وهو ثان عتانه حيث يقول :

فأدركهن ثانياً من عنانه يمر كمر الراح المتحلب

ولقد أثر هذا الحكم على امرئ القيس حتى طلق أم جندب ، كما  
أثر على علقمة فاستحسن أن يعوضها بنفسه زوجاً ، اعترافاً بحريتها وتقديراً  
لإدراكها وعدالتها . .

ويقول الأستاذ « كامبو » ( Campeax ) ، في كتابه « مسألة النساء  
في القرن الخامس عشر » : « اعترفت معاهدة بيجور » ( Bigorre ) .  
المعقودة سنة ١٠٩٧ للسيدات بنفس الامتياز الذي كان للكنايس ، ألا وهو  
حق حماية اللاجئ ، فكان المستظل بثوب سيدة كالمستظل بمحصن منيع ،  
وكان من يلوذ بأقدام سيدة يضمن سلامته ، ولا بأس عليه إلا أن يعوض  
ما أفسده » (١) .

أما في بلاد العرب فإنه لم تعقد معاهدة من هذا القبيل ، وإنما جرى  
العرف من قديم على الاحتفاظ للنساء بحق حماية اللاجئ حماية فعلية  
وفعالة ، تعود على المذنب بالعفو ، وتبقى للأسير في ميدان الوغى حياته  
وحريته .

لقد مضى مسعود ، أحد زعماء قيس ، قبل أن يشن معركة عكاظ  
(حوالي سنة ٥٨٠ م) يقول لزوجته : « سوف أمنح الأمان لكل قريشي

---

(١) ص ٧٤٦ .

يلوذ بخيمتك » . فراحت تجمع رقعاً من القماش توسع بها خيمتها لتفسح المجال لأكبر عدد من اللاجئين . ولكن زوجها أعلن لها بأنه لن يبقى إلا على عدد من الرجال لا يتجاوز ما تحتويه خيمتها بحجمها الأصلي ؛ فأجابته قائلة : « قد يأتي وقت تمنى فيه لو كانت خيمتي أفسح رحاباً » .

ولقد تحقق ذلك ، فقد كان مسعود – رغم شجاعته – مغروراً فاندحر ، وهرع هو والذين فروا معه فلاذ بخيمة زوجته . فلما أقبل « حرب » قائد القرشيين ، قال : « يا أخت أبي ، إني أمنح الأمان كل من يدخل خيمتك ، أو يلمس جبلا من جبالها ، أو يطوف حولها » .

وإذ ذلك رددت زوجة مسعود بصوت مرتفع تصريح القائد الظافر ، وأرسلت أبناءها الأربعة ل يبحثوا عن الذين لم يجدوا ملجأ يدرأ عنهم شر المطاردة . وسرعان ما التأم حول الخيمة الحرام حلقة واسعة من الهارين تولت هي خدمتهم ، وأمنهم « حرب » جميعاً على سلامتهم وحريرتهم <sup>(١)</sup> .

وكان أبو العاص – وهو الذي تزوج زينب بنت الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم فرق الإسلام بينهما – قد وقع أسيراً مع قافلته ، وسيق معهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستجار أبو العاص بزينب ، فوعده خيراً ، وانتظرت حتى صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الفجر بالمسلمين ، ثم وقفت على بابها – في المسجد – فنادت بأعلى صوتها : « إني قد أجزت أبا العاص ابن الربيع » ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) راجع كوسان دى برسفال : بحث في تاريخ العرب قبل الإسلام .

أيها الناس هل سمعتم ما سمعت؟» قالوا: «نعم». قال: «فوالذي نفسي بيده ما علمت بشيء مما كان حتى سمعت الذي سمعتم. المؤمنون يد على من سواهم، يجير عليهم أديانهم، وقد أجرنا من أجرنا» (١).

وما زال أثر المرأة هذا قائماً حتى اليوم لدى البدو على أقل تقدير. ويكنى أن أستاذهم بمثل واحد أستقيه من كتاب القائد «دوما» - الذي نشر بعد وفاته - وهو من القلائل الذين عرفوا أخلاق عرب الجزائر وعاداتهم. يقول:

«خرج أولاد يعقوب يلتمسون غنيمة، فكشفوا مخيماً لأولاد نائل الذين كانوا يناصبونهم العداوة، فقرروا أن يهاجموهم في الحال. وكان القوم حشداً غفيراً، فلم يتعسر عليهم أن يحدقوا من كل جانب «بالنزلة» التي جمع أولاد نائل في وسطها كل قطعانهم. ولما رأى أولاد نائل أن عدواً يفوقهم عدداً وبأساً قد حاصروهم، لم يفكروا في المقاومة، بل مضوا ينشدون السلامة في حمى النساء، أي في ذلك الاحترام الذي لا شك يكنه لهن الفرسان.

وأسرعت أربع حسناوات من نساء النزلة، مهدلات الشعور، محلولات الأحزمة نحو جهات الخيم الأربع، وتصدين للعدو صائحات:

---

(١) المرجع السابق ج ٣ ص ٧٧.

والمرأة العربية في جاهليتها وإسلامها ج ٢ ص ٥٢. وقد عاد أبو العاص بعد ذلك إلى مكة فأدى الحقوق إلى أهلها، ثم أب إلى المدينة مسلماً، فرد عليه النبي زوجته (تحقيق)

« هذا الجانب في حماى ، والفارس الباسل من يرعى حرمة النساء . »  
فلما رجع المهاجرون إلى قبيلتهم ، أنهالت عليهم الأسئلة ، إذ عادوا  
صفر الأيدي ، مما أثار سخرية المستظلعين . ولكنهم أجابوا دون انفعال :  
« لقد أصبنا أعداءنا ، وظهرنا عليهم ، إلا أن أربع نسوة استرددنهم  
بقدره ما لهن علينا من حرمة » .

وأضافوا : « إن عرض المرأة كوهج الشمس في السماء ، يستحيل على  
البصر أن يحدق فيه » .

وقالوا أيضاً : « إنما ينبغى للمرأة من الاحترام والإجلال ما ينبغى لذوى  
السلطان ، ولو قد سألنا جيادنا لأعطيناهن إياها » .

ولقد نظر العرب فوق ذلك إلى دور النساء دائماً نظرتهم إلى البيت  
الحرام . وما لفظه « الحريم » - وهى التى انتقلت إلى اللغات الأوربية وفى  
نبراتها وحى من أسرار الشرق وملذاته - إلا كلمة تعنى « الممنوع » أو  
« المقدس » ، وأما « الحرمة » فتعنى فى وقت واحد المرأة والزوجة والشئ  
المقدس « الذى لا يحل انتهاكه » .

على أن محيط الحماية التى اختصت بها المرأة لم يكن محدوداً بظل ثوبها  
أو بمضرب خيمتها أو نطاق دراها ، بل كان أبعد مجالاً وأشمل . فلقد  
كانت خصلة من شعر امرأة كالتيمة الواقية من المكاره ، أينما علقت  
أفشت السلام وكفلته . يقول الأستاذ كاترمير : « ولا ينبغى أن أنسى  
ذكر أنجع وسيلة استخدمها العرب إذا أهدق بهم الخطر وأرادوا الحصول

على حماية مقاتل أو أمير اشتهر بالشجاعة . فقد كان المرء منهم يجتر شعر امرأته أو قرية له ويرسله إلى من استنجد به . ويقدم لنا التاريخ الشرقى عدة أمثلة لذلك : فبعد اغتيال الخليفة الفاطمي الظافر ، كتبت أخته تستغيث بالأمير طلائع بن رزيك ، وطوت رسالتها على شعور من رهووس نساء القصر ؛ فلما دخل طلائع القاهرة ، أمر جنده بأن يرفعوا على رماحهم تلك الشعور التي أرسلت إليه ، مظهراً بذلك للشعب ما حازه من تقدير ومن ثقة في صورة رائعة . وكذلك فعل عضد الدولة إذ حاصره الفرنجة فاستنجد بنور الدين وأرسل إليه قصة من شعور نسائه . وفي أثناء فتح الأتراك لليمن ، أراد « مظاهر » أن يستنجد بالعرب ، فأرسل إليهم شعور زوجاته وبناته وغيرهن من نساء المدينة التي كان والياً عليها . وكان الرجال الكرام إذا تلقوا مثل هذا الدليل على كربة قوم ، لا يتوانون في إغاثة أولئك المستنجدين الذين وضعوا - على هذا النحو - في كنفهم أعز ما لديهم في الدنيا « (١) .

وإن فيما أسلفنا من استشهادات وأمثلة ، ما يكفي لبيان أن مجتمعا منظما قد ازدهر في بلاد العرب منذ القرن السادس ، وهو مجتمع تسوده في آن واحد رقة الود والمجاملة وصرامة الحرب والفروسية، وتنال فيه البنات والأخوات والزوجات والأمهات دلائل الحب والإعجاب والاحترام ، ويتم فيه كل

(١) كاترمير : مزاج من التاريخ وفقه اللغات الشرقية ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦ :

« مقالة في الملاجيء عند العرب » .

شيء من أجلهن بل وبأيدنهن، من حرب أو سلام ، ومن تاريخ أو أساطير ! ولا حاجة بنا إلى استعراض جميع فروع النشاط الإنساني لنسمى من نساء العرب من شاركن فيها بنصيب ، فإنهن لعديدات أولئك اللواتى امتزن واشتهرن فى الشعر والسياسة وفى التجارة والصناعة وفى الطب وفنون الحرب وفن الخطابة ، فضلا عن الكهانة التى يبدو أنها كانت فى جميع بلاد الدنيا أو كادت تكون وقفاً على أفضل نصنى الرجل . ولسوف نقتصر هنا - بدلا من سرد قائمة من الأسماء قد تكون مملّة رغم ما تعبق به أسماء النساء من عطر حلو - على تقديم مختارات قصيرة من المراثى النسائية . وبعد أن نتطهر فى هذا النبع الصافى من دموع شاعراتنا ، نستطيع أن نعالج موضوع الزواج فى الجاهلية ، وموضوع المرأة فى الإسلام ، والمرأة طبقاً لما ورد فى القرآن .

فهذه أميمة بنت عبد شمس ترى ابن أختها أبا سفيان بن أمية ومن قتل من قومها فى حرب الفجار ، فى أبيات منها <sup>(١)</sup> :

أبى ليلك لا يذهب	ونيط الطرف بالكوكب
ونجم دونه الأهوا	ل بين الدأو والعقرب
وهذا الصبح لا يأتى	ولا يدنو ولا يقسرب
بعقر عشيرة منا	كرام الحيم والمنضب

(١) الأغاني ج ١٩ ص ٨٢ .

أحبال عليهم دهر	حديد النساب والمخلب
فحل بهم وقد أمنوا	ولم يقصر ولم يشطب
وما عنه إذا ما حل	ل من منجى ولا مهرب
ألا يا عين فابكيهم	بدمع منك مستغرب
فإن أبك فهم عزي	وهم ركني وهم منسكب
وهم أهلى وهم فرعى	وهم نسبي إذا أنسب
وهم مجدى وهم شرفى	وهم حصنى إذا أرب
وهم رعى وهم ترسى	وهم سيني إذا أغضب
فكم من قاتل منهم	إذا ما قال لم يكذب
وكم من ناطق فيهم	خطيب مصقع معرب

وهذه أيضاً لبانة تترى زوجها محمد بن هرون الرشيد (١) :

أبكيك لا للنعم والأنس	بل للمعالي والرمح والفرس
يا فارساً بالعراء مطرحة	خانتة قواده مع الحرس
أبكى على سيد فجعت به	أرمتنى قبل ليلة العرس
من للحروب التى تكون لها	إن أضمرت نارها بلا قبس
أم من لبر أم من لفائدة	أم من لذكر الإله فى الغلس

(١) المقد الفريد ج ٢ ص ٢٦ .

ولصافية بنت عمر البهلية ترى زوجها (١) :

كنا كغصنين في جرثومة (٢) بسقا (٣)  
حتى إذا قيل قد طالت فروعهما  
أخنى على واحد ريب الزمان وما  
كنا كأنجم ليل بينها قمر  
وللخنساء في رثاء أخيها صخر (٤) :

أعني جودا ولا تجمدا  
ألا تبكيان الجريء الجواد  
رفيع العماد طويل النجا  
إذا بسط القوم عند النضال  
وكان ابتدارهم للعلا  
فسال الذي فوق أيديهم  
ويحمل للقوم ما عالم  
جموع الضيوف إلى بيته  
غياث العشيرة إن أحلوا (٥)

ألا تبكيان لصخر الندى  
ألا تبكيان الفقى السيدا  
د ، ساد عشيرته أمردا  
أكفهم تبتغى المحمدا  
سار فد إليها يدا  
من المجد ثم انتمى مصعدا  
وإن كان أصغرهم مولدا  
يرى أفضل الكسب أن يحمدا  
يهين التلاد (٦) ويحيى الحداد (٧)

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٧٧ .

(٢) جرثومة الشيء : أصله .

(٣) والبسوق : الطويل .

(٤) أنيس الجلساء في ديوان الخنساء .

(٥) المحل : الجدب وانقطاع المطر .

(٦) المال . (٧) المطر .

## الزواج

من العسير أن نحدد القواعد التي كان يتبعها العرب القدماء بشأن الزواج . فلم يوجد في واقع الأمر قبل الإسلام أى تشريع أو منظمة قضائية واضحة المعالم ، اللهم سوى طائفة من التقاليد أدت إلى العرف الذى اكتسب على مر الزمن قوة القانون . ولقد أغفل المؤرخون أو رواة التقاليد والشعراء - وكان الشعراء أول المؤرخين وأشدهم سحراً ودقة - أن ينبثونا عن القوانين المدنية التى كانت تنظم شئون الناس وشئون المال فى عصر الجاهلية . فلقد وقف الجميع جهدهم على أن يرسموا لنا بالتفصيل خطوط أنساب الرؤساء والقبائل والجياد ، وراق لهم أن يفيضوا فى الحديث عن أصغر حوادث الحروب أو « الأيام » الشهيرة ، ولم يحظر لواحد منهم - شاعراً كان أم مؤرخاً - أن يخبرنا عن النظام التشريعى والقضائى للعرب القدماء ، وأن يتحفنا بمجموعة من قرارات وأحكام القضاة الذين كانت القبائل تعهد لهم بمهمة الفصل فيما ينشب من نزاع يوى بين القبائل أو الأفراد . لقد كانت تستأثر بنشاطهم الحركة والمغامرة فلا تدع لهم روية التشريع وسن القوانين والتفكير الفلسفى ، بقدر ما كانت تتيح لهم فرصة التبارى فى فصاحة الكلام إذا انتهت بينهم حرب الرمح والحسام ، فيتغنون بما أثرهم ويشيدون بأسلحتهم وجيادهم وأجدادهم ؛ وأما ما عدا ذلك فهيات أن يعيروه اهتماماً .

على أن شراح الأمثلة القديمة ومفسرى القرآن قد أمدونا في موضوع بحثنا هذا بمعلومات مفيدة ، ولعلها هي المعلومات الوحيدة التي يستطيع الخلف أن يحيطوا بها في هذا المضمار . فقد حرص بعض الفقهاء - وهم بصدد بعض الآيات القرآنية المتصلة بالزواج - على ذكر ما كانت تجرى عليه الأمور في الجاهلية . ومن تلك الروايات نستدل على أن الزواج لم يكن مباحاً بين كل امرأة وكل رجل على الإطلاق ، بل كانت هناك محارم . فما كان يجوز لأم أن تقترن بابنها ولا لأب أن يقترن بابنته ، ولا للاخ غير الشقيق بأخته ، ولا للخالة بابن أختها . وفيما عدا هذه المحارم ، كان لكل امرئ أن يتزوج من النساء ما يتيح له قدراته أن يتزوج . وقد عرف العرب في الجاهلية عدة أنواع من النكاح ، نبدأ بذكر أخصها :

- (١) زواج « الصفا » أى زواج التجربة ؛ وكان للمرأة كما كان للرجل الحق في فصم عراه إذا لم تكن التجربة مرضية .
- (٢) « نكاح المتعة » ، وهو زواج كان يعقد لأمد معلوم كسنة أو سنتين أو مجهول كقدوم (فلان) ، وكان من المستطاع أن يمد أمده إذا استدعى الحال ، أو أن يتحول إلى زواج دائم حتى آخر العمر .
- (٣) نكاح « الرهط » ، وهو بين امرأة وعدد من الرجال ، لا يتجاوز العشرة على كل حال ، تختارهم هى أو ترضى بهم أزواجاً . وكانت تلك المرأة إذا ولدت ذكراً أرسلت فجمعت أزواجها كلهم وأعلنت أمامهم :

« أنه ابنك يا فلان » . وهكذا كانت تصل برباط البنوة ما بين وليدها وبين الرجل الذي تؤثره على الآخرين ، أو الرجل الذي تقنعها أسباب خاصة بأنه هو أبو الطفل حقاً . وكان على الرجل الذي تعينه المرأة بهذه الصورة أن يعترف بأبوة طفل هو ثمرة التعاون الودي قبل كل شيء ( أما إذا كان المولود بنتاً فإنها لا تنسبها إلى أحد ) .

وأما النسوة المتبدلات اللواتي كن يرفعن على أبواب خيامهن أعلاماً ، ويتصلن بأى طارق ، فكان أطفالهم ينسبون إلى من يشبهونهم من أولئك الرجال .

( ٤ ) « نكاح الشغار » ، وهو زواج بلا مهر ، فقد كان الرجل يزوج ابنته أو أخته ، على أن يتزوج هو ابنة ذلك الزوج أو أخته أو ابنة أخته دون صداق . وتلك مقايضة لا ينبغي أن نخلط بينها وبين :

( ٥ ) « نكاح البدل » ، وهو تبادل حقيقي يتنازل فيه الرجل عن زوجته إلى رجل آخر مقابل تنازله هو الآخر عن زوجته له .

( ٦ ) « نكاح الاستبضاع » : فكان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من حیضها: أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه أى اطلبي منه الاجتماع لتحملي منه ؛ ويعتزلها زوجها ولا يمسه أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل . وإنما يفعل ذلك رغبة منه في نجابة الولد . يطلبون ذلك من أكابرهم ورفصائهم في الشجاعة أو الكرم أو غير ذلك .

( ٧ ) وآخر أنواع الزواج « المقت » . وكان يحدث عقب موت

الزوج إذا ألقى ابنه الأكبر رداءه على أرملة أبيه التي ليست أمّاً له - وهو  
 يعنى بذلك أنه ورث الاستمتاع بها (١) . وكان له أيضاً أن ينزل عنها  
 لواحد من إخوته نظير مهر معلوم . ولكن ذلك الزواج كان بغيضاً  
 فسمى « بالمقت » ، وسمى من يعمد إليه « الضيزن » أى الغريم ، لأنه كان  
 ينافس أباه .

تلك كانت أنواع الزواج الغربية التي انتشرت بين العرب قبل  
 الإسلام . وتنقصنا الوثائق التي يمكن على ضوءها أن نحدد في أى الحقب  
 وأى القبائل وأى الطبقات الاجتماعية ساد هذا اللون أو ذاك من ألوان  
 الزواج . وأما ما نستطيع أن نؤكد ، فهو أن هذه الزيجات كانت زيجات  
 استثنائية . فإنها تناقض تناقضاً بيناً ما نعلمه من الاحترام الذي أظهره  
 العرب للمرأة في جميع العهود ، هذا الاحترام الذي تشهد به وقائع التاريخ ،  
 كما تشهد به مواقف القصص الماثورة وقصائد الشعر . وإنها لتناقض أيضاً  
 ما نعرفه من سجايا العربي ؛ فلا جدال في أن العرب قد حرصوا في كل  
 شيء على النبل والتقاء ، ولا سيما في أنسابهم . وهذه أنسابهم تقرر اسم  
 الأب باسم الأم ، وأسماء الأبناء بأسماء البنات ، ولا يكتمل النسب العريق  
 إلا إذا انتمى المرء من « كلا الجنين » إلى أسرة تليدة . ولقد كان المرء  
 يفخر دائماً بعمومته وخنولته ، ويفخر فوق كل شيء بصفاء أصله . يقول

( ١ ) ولكن الأرملة إذا استدركت حركة الوارث وعادت إلى عائلتها الأصلية استطاعت  
 في هذه الحال أن تستقل بنفسها وأن تنصرف كما تشاء ( الطبرى : تفسير القرآن ) .

السموئل بن عادياہ :

صفوفا فلم نكدر وأخلص سرنا<sup>(١)</sup> إناثٌ أطابت حملنا وفحول  
علونا إلى خير الظهور ووطننا لوقت إلى خير البطون نزول  
فتحن كماء المزن<sup>(٢)</sup> ما في نصابنا<sup>(٣)</sup> كهام<sup>(٤)</sup> ولا فينا يعد بجييل

غير أنه من اليسير فيما يبدو لنا أن نفسر هذا التناقض البين الذي  
أبرزناه ، بالاعتبارات التالية :

(١) لا تزال المرأة بعد الزواج تربطها بعائلتها الأولى وأواصر أقوى  
مما تربطها بعائلة زوجها . وهذا ما يعبر عنه المثل القديم القائل : « الزوج  
يوجد ، والولد يولد ، ولا عوض عن الأخ » . وهكذا لا تحتسى الزوجة  
بزوجها فحسب ، بل تحميا من شر معاملته تلك الكتيبة التي تتألف من  
إخوتها وأعمامها وبني عمومها .

(٢) كان الدور الذي تؤديه المرأة فيما قبل الإسلام دوراً اجتماعياً أقل  
مما هو دور عائلي ، فلم تكن تصبح بالزواج قرينة لزوجها فحسب ، بل  
معيناً نفسياً يساهم في إسعاد القبيلة بوجه عام . فرسالها هي تغذية المحاربين  
برجال أشداء شجعان ، وإنجاب أبطال عديدين . . . وأما في نطاق

(١) السر : الأصل الجيد .

(٢) المزن : السحاب الأبيض وماؤه أطهر المياه لسلامته من الاستعمال .

(٣) النصاب : الأصل .

ديوان الحماسة ج ١ ص ١١٥ .

(٤) الكهام : الكلليل الحد .

العائلة، فيبدو أنها لم تكن ذات كيان خاص وشخصية مستقلة ، بل كانت خاملة الذكر - فهي زوج وهي أم ، ومن هاتين الوظيفتين كانت تتوالى عليها الواجبات أكثر مما تنشأ لها الحقوق والامتيازات . وأما في الخارج ، وحيث تتجاوز سجن الزوجية ، فهي امرأة - أي « مواطنة » كما نقول اليوم - تتساوى بالرجل ؛ وعلى هذا الأساس يحق لها أن تطلق العنان لملكاتها ، مما يتيح لها أن تتفوق وأن يسطع نجمها ، وأن تقرر أمر الحرب والسلام .

بل ولعلنا نستطيع أن نجد قيمة أخلاقية ما ، في هذه الزيجات التي تبدو لأول وهلة منافية للأخلاق الشريفة . فإن لها الفضل في إلغاء طائفة « البنات الأمهات » و « أولاد السفاح » ، من حيث أن البغي كانت تعتبر زوجة للرجل الذي أنجب الطفل ، ومن حيث أن هذا الطفل كان يحمل اسم أبيه التقديري ناجياً بذلك من وصمة العار التي تتعقب مثله من نعتة « بالابن غير الشرعي » أو « الابن الطبيعي » .

على أنه كان يوجد خارج هذه المجموعة من أنواع الزواج وعداها ، صورة للزواج أكثر انتظاماً ورقياً ، وهي أغلب حالات التزاوج : وتلك هي صورة الأب ينجب ابنته بأن فلاناً يطلب يدها ، فإذا قبل العرض ، مد الأب يده فصافح الخطيب أو الوصي عليه أو مندوبه وتم الاتفاق ، وإذا رفض العرض أرغم الأب ابنته على الزواج .

وإليك قصة خطبة القائد الباسل دريد بن الصمة للخنساء :

« مر دريد بن الصمة بالخنساء بنت عمرو بن الشريد وهي تهناً

بعيراً لها وقد تبذلت حتى فرغت منه ، ثم نضت عنها ثيابها فاغتسلت  
 ودريد يراها وهي لا تشعر به ، فأعجبته ، فانصرف إلى رحلة وأنشأ في ذلك  
 شعراً .. فلما أصبح غداً إلى أبيها فخطبها إليه . فقال له أبوها : مرحباً بك  
 أبا قرّة إنك للكريم لا يطعن في حسبه ، والسيد لا يرد عن حاجته ،  
 والفحل لا يقرع أنفه . ولكن لهذه المرأة في نفسها ما ليس لغيرها وأنا  
 ذاكرك لها وهي فاعلة ، ثم دخل إليها وقال لها : يا خنساء ، أتاك فارس  
 هوازن وسيد بني جشم دريد بن الصمة يخطبك وهو من تعلمين — ودريد  
 يسمع قولها — . فقالت : يا أبت ، أتراني تاركة بني عمي مثل عوالي الرماح  
 وناكحة شيخ بني جشم هامة اليوم أو غد ! فخرج إليه أبوها وقال :  
 يا أباقرّة قد امتنعت ، ولعلها أن تجيب فيما بعد. فقال : قد سمعت قولكما  
 وانصرف (١) .

(١) وقيل قالت لأبيها : أنظرنى حتى أشاور نفسي ، ثم بعثت خلف دريد وليدة  
 فقالت لها : انظري دريدا إذا بال ، فإن وجدت بوله قد خرق الأرض فقيه بقيه ، وإن  
 وجدته قد ساح على وجهها فلا فضل فيه . فأتبعته ولديتها ثم عادت إليها فقالت : وجدت بوله  
 قد ساح على وجه الأرض ، فأمسكت . وعاود دريد أباهما ، فعاودها فقالت له هذه المقالة  
 المذكورة ثم أنشأت تقول :

أتخطبني هبلت على دريد      وقد أطردت سيد آل بدر  
 معاذ الله يتكحنى حبركى      يقال أبوه من جشم بن بكر  
 ولو أمسيت في جشم هدياً      لقد أمسيت في دنس وفقر

فغضب دريد من قولها وقال من قصيدة طويلة في هجائها :

وتقدم لنا أخبار العرب كذلك أمثلة عديدة من فتيات مطلقات  
 التصرف يتزوجن من يخترنه بأنفسهن . ودون أن نتحدث عن « صديق »  
 التي تزوجت « حوران الجديده » ، وعن الحسناء « خود » التي شاءت أن  
 تكون عروس أبي نواس الأسود ، وعن « ماوية » التي بعد أن امتحنت  
 خطابها الثلاثة في قرص الشعر وفيض الكرم تخيرت أشعرهم وأكرمهم  
 « حاتما الطائي » ، حسبنا أن نورد عن كتاب « الأغاني » ، تلك الملابس  
 التي أدت بـ « ريطة » إلى أن تعرض يدها على الفارس ربيعة :

فقد أورد عمرو<sup>(١)</sup> بن معد يكرب في حديث له طويل مع سيدنا عمر  
 ابن الخطاب عن شجاعة ربيعة بن مكدم قوله « خرجت ريطة من خيمتها  
 فجلست بين صواحب لها ، ثم دعت وليدة من ولائدها فقالت لها :  
 ادعي فلاناً . فدعت لها رجلاً من الحى . فقالت له : إن نفسى تحدثنى  
 أن خيلاً تغير على الحى ، فكيف أنت إن زوجتك نفسى ؟ فقال : أفعل  
 وأصنع . . فجعل يصف نفسه فيفرط . فقالت له : انصرف حتى أرى  
 رأيي . وأقبلت على صواحبها فقالت : ما عنده خير . ادعى لى فلاناً .  
 فدعت آخر فخطبته ، فأجابها بمثل جوابه ، فقالت له : انصرف حتى

---

وقاك الله يا ابنة آل عمر      من الفتيان أمثالى ونفسى  
 فلا تلدى ولا ينكحك مثل      إذا ما ليلة طرقت بنحس  
 وتزعم أنى شيخ كبير      وهل خبرتها أنى ابن امس  
 تريد شربث القديين شناً      يبادر بالجدائر كل كريس

(تحقيق)

(١) الأغاني ج ١٤ ص ١٣٢ .

أرى رأيي ، وقالت لصواحباتها: وما عند هذا خير أيضاً . ثم قالت  
للوليدة : ادعى لي ربيعة بن مكدم ، فدعته فقالت له مثل قولها للرجلين ،  
فقال لها : إن أعجز العجز وصف الرجل نفسه ، ولكني إن لقيت  
أعدرت ، وحسب المرء غناء أن يعذر . فقالت له : قد بزوجتك نفسي ،  
فاحضر غداً مجلس الحى ليعلموا ذلك . »

ولقد أقر التاريخ اختيار « رويطة » ، فقد أصبح « ربيعة » أروع  
فرسان بلاد العرب القديمة .

## المهر

لازواج دون مهر ، إلا « نكاح الشغار » ، حيث يقدم المرء عروساً ويتزوج نظيرها ، فيتكافأ بذلك المهر الذي يجب عليه أن يدفعه والمهر الذي ينبغي له أن يتأله . وكان الخاطب أو وكيله يدفع المهر لأبي الفتاة ، أو لمدوبه الذي قد يكون أخاه أو ابن عمه ، وهو على كل حال أكبر أفراد الأسرة سناً . وكانت قيمة المهر يحددها الأب أو يقدمها الخاطب من تلقاء نفسه عند ما يطلب الزواج .

وتقرأ في كتاب « الأغاني » أنه لما ذاع حب ليلي والمجنون ، وتناشد الناس شعره فيها ، طلب قيس يدها من أبيها وبذل لها خمسين ناقة حمراء . وكذلك طلبها ورد بن محمد العقيلي وبذل لها عشرأ من الإبل وراعيها . فقال أهلها : نحن نخيروها بينكما فن اختارت تزوجته . ودخلوا إليها فقالوا : والله لئن لم تختاري وردأ لتمثلن بك .

ولقد قال المجنون آنثذ أبياتاً نثبها هنا إتماماً للفائدة (١) :

ألا ياليل إن ملكت فينا خيارك فانظري لمن الخيار  
ولا تستبدلي مني دنيا ولابرما إذا حب القنار (٢)

(١) الأغاني ج ٢ ص ١٤ . (تحقيق)

(٢) ربح اللحم المشوى .

يهول في الصغير إذا رآه وتعجزه ملمات كبار  
فقل تأيم منه نكاح ومثل تمول منه افتقار

فاختارت ليلي ورداً فتروجته على كره منها .

وفما عدا النوق والرعيان ، ربما كان المهر من سلع مختلفة ، كقطعان الضأن أو العطور أو الأقمشة ، أو قطع النقد من الفضة أو الذهب . . . وكان المهر بمثابة ثمن للفتاة أى قيمتها التجارية ، باعتبار سنها وأوصافها البدنية والحلقية ونسب أسرتها ومركز أبيها بين أفراد القبيلة . ولا ينبغي أن ننسى أن الزيجات كانت تنشئ بين بعض القبائل وبعض ، أو أصر وعهوداً تدفع الأصرار إلى أن يتضامنوا ويذود بعضهم عن بعض إذا ألم الخطر .

وقد أسلفنا القول بأن المهر كان يدفع ويسلم لأبي الفتاة ، وينبغي أن نضيف إلى ذلك أنه كان يصبح ملكه الخاص . وهكذا كانت الفتيات مصير ثروة ما دامت مهورهن مزيداً لثراث الأسرة . ولذا كان القوم يبادرون إلى تهنئة الأب الذى تولد له بنت قائلين : « هنيئاً لك النافجة » أى السحابة الكثيرة المطر . فلقد كانت الفتاة ، كماء السحاب تخصب أرضه وتنمى ماله .

وما دامت البنات — فضلاً عما تكنه لهن عواطف الأبوة من حب — مصير ثراء ، فما بال بعض القبائل تذهبن ؟ « لقد كان بعض العرب

حين تولد لهم بنت ، يدفنونها في الحال ، يدفعهم إلى هذا العمل الوحشي لإملاقهم ، أو لإسرافهم في الاعتزاز بأنفسهم وبشرفهم ، إذ يتفادون بذلك وصمة العار التي قد تلحق بهم يوم يخطف ابنتهم عدو يهتك عرضها « (١) » .

ويقول الميداني ، عن الهيثم بن عدى : إن وأد البنات كان منتشرأ في جميع قبائل العرب على السواء ، ولكن بنسبة واحد يزاوله إلى عشرة يجرمونه . وقد انقضت هذه العادة الوحشية في كل القبائل عند ظهور الإسلام ، فيما عدا قبيلة تميم التي تمادت في اتباعها أكثر من ذي قبل . وسواء أكان بنو ربيعة أم بنو تميم هم الذين ابتكروا تلك العادة ، فإن ذلك لا يعنيننا كثيرا ، وإنما ينبتنا أن نلاحظ أن الكتاب قد أجمعوا على أن السبب الأول لوأد البنات كان خشية « خيانة » الجنس الضعيف . ولدينا عن هذه الخيانة الأولى عدد لا بأس به من القصص التي لا تتفق فيما بينها على الزمان أو المكان ، ولا على الملابس التي اكتنفت الحادث ، وإنما تروى جميعها اختطاف عدد من البنات يخبرن بعد ذلك بين العودة إلى أهلهن وبين البقاء لدى خاطفين ، فيقبلن أن يعدن إلى أهلهن ، ما عدا واحدة هي ابنة زعيم شهير أو ابنة أخته ، تجرؤ على أن تفضل عاشقها على أهلها ! وهناك يشعر الزعيم بالخزي والعار فيغضب ويقسم ليئدن كل بنت تولد له في المستقبل . وإذا بقومه يقتدون به خشية أن تجر عليهم بناتهم الهوان ذات يوم ، فخورين بأن يضحوا — في سبيل

(١) كومان دي برفال ، الجزء الأول ، ص ٣٥١ .

الشرف — أعز ما لديهم في الدنيا . . بناتهم . . « لحمهم ودمهم » .  
ولقد قضى الإسلام على هذه العادة « المشثومة » . ومن الحق أن  
نلاحظ أنها كانت في طريقها إلى الانقراض من تلقاء نفسها ، وأن رجالا  
من أولى الشفقة كانوا قبل ظهور النبي يسعون سعيًا كريمًا في افتداء حياة  
أولئك المنكودات البريات .

## الطلاق

كان قدماء العرب يعترفون للزوج - بوجه عام - بحق تسريح زوجته . ولكي يصبح هذا الطلاق نهائياً ، كان يشترط أن يتكرر ثلاث مرات في فترة من الزمن معلومة . وكثيراً ما كان الزوج يسرح زوجته مرة ومرتين ، ثم يستردها قبل انقضاء المدة المعلومة ، فيضطرها بذلك إلى أن ترضح تحت نيره إلى أجل غير محدود .

وكانت صيغ الطلاق عديدة ، أعمها أن يقول الزوج لامرأته :  
« عودي لأهلك » أو « ارجعي لأبيك » .

وكان للزوجة أيضاً الحق في فصم عرى الزواج . وكانت تتخذ في ذلك وسيلة رمزية ؛ إذ تحول فتحة الخيمة المؤدية لخدرها إلى الناحية المضادة ، فتجعلها نحو الجنوب بدلا من الشمال مثلا ، حتى إذا عاد الزوج ووجد الباب مغلقا ، فهم المراد ، وانقطع بذلك رباط العشرة في سكون ، وأصبح كل من الزوجين - دون تبادل التحيات - غريبا عن صاحبه تمام الغربة .

وكانت المرأة تستطيع كذلك أن تحصل على حريتها مقابل تعويض تدفعه للزوج ، وقد جرت العادة على أن يكون هذا التعويض مساويا

لقيمة المهر الذى سبق أن قدمه الزوج . وكان هذا النوع من الطلاق يعرف  
« بالخلع » .

وها هي ذى قصة طلاق هند بنت عتبة ، عن « العقد الفريد » (١) .  
وأنها لصورة من صور المجتمع قد يتوق القارئ لاجتلائها :

« كان الفاكه بن المغيرة المخزومي أحد فتیان قريش ، وكان قد تزوج  
هند بنت عتبة . وكان له بيت للضيافة يغشاه ، الناس فيه بلا إذن .  
فقال (٢) يوماً فى ذلك البيت وهند معه ثم خرج عنها وتركها نائمة . فجاء  
بعض من كان يغشى البيت . فلما وجد المرأة نائمة ولى عنها . فاستقبله  
الفاكه بن المغيرة ، فدخل على هند وأنبهها ، وقال : من هذا الخارج  
من عندك ؟ قالت : والله ما انتهت حتى أنبهتني ، وما رأيت أحداً قط .  
قال : الحقى بأبيك . وخاض الناس فى أمرهم . فقال لها أبوها : يا بنية ،  
أنبئيني شأنك ، فإن كان الرجل صادقاً دسست عليه من يقتله ، فينقطع  
عك المقالة ، وإن كان كاذباً حاكمته إلى بعض كهان اليمن . قالت :  
والله يا أبت إنه لكاذب . فخرج عتبة فقال : إنك رميت ابنتي بشيء  
عظيم ، فإما أن تبين ما قلت ، وإلا فحاكمنى إلى بعض كهان بنى اليمن .  
فخرج الفاكه فى جماعة من بنى مخزوم ، وخرج عتبة فى رجال ونسوة من  
بنى عبد مناف . فلما شارفوا بلاد الكاهن تغير وجه هند ، وكسف بالها ،

(١) ج ٦ ص ٨٦ . انظر أيضاً رواية « الأغاني » ج ٩ ص ٥٤ ، ٥٣ . (تحقيق)

(٢) القائلة : نصف النهار . قال قيلة وقيلولة : نام فيه .

فقال لها أبوها: أى بنية ، ألا كان هذا قبل أن يشتهر فى الناس خروجنا !  
 قالت : يا أبت ، والله ما ذلك لمكروه قبلى ، ولكنكم تأتون بشراً يخطئ  
 ويصيب ، ولعله أن يسمنى بسمة تبقى على السنة العرب . فقال لها أبوها :  
 صدقت ، ولكنى سأخبره لك . فصفر بفرسه ، فلما أدلى ، عمد إلى  
 حبة بر فأدخاها فى إحليله ، ثم أوكى<sup>(١)</sup> عليها وسار . فلما نزلوا على  
 الكاهن أكرمهم ونحر لهم ، فقال له عتبة : إنا أتيناك فى أمر وقد خبأنا لك  
 خبية فما هى ؟ قال : ثمرة فى كمره . قال : أريد أبين من هذا . قال :  
 حبة بر فى إحليل مهر . قال : صدقت ، فانظر فى أمر هؤلاء النسوة .  
 فجعل يمسح رأس كل واحدة منهن ويقول : قوى لشأنك ؛ حتى إذا بلغ  
 إلى هند مسح يده على رأسها وقال : قوى غير رسحاء<sup>(٢)</sup> ولا زانية ،  
 وستلدين ملكا يسمى معاوية . فلما خرجت ، أخذ الفاكه بيدها ،  
 فنثرت<sup>(٣)</sup> يده من يدها وقالت : والله لأحرصن أن يكون ذلك الولد من  
 غيرك . . فتزوجها أبو سفيان فولدت له معاوية<sup>(٤)</sup> .

(١) ربط عليها .

(٢) رسحاء : قبيحة .

(٣) نثرت : جذبت بشدة .

(٤) ذكروا أن هند بنت عتبة بن ربيعة قالت لأبيها : يا أبت : إنك زوجتني  
 من هذا الرجل ولم تؤامرنى فى نفسى ، فعرض لى معه ما عرض ، فلا تزوجنى من أحد حتى تعرض  
 على أمره ، وتبين لى خصاله ؛ فخطبها سهيل بن عمر وأبو سفيان بن حرب ، فدخل عليها  
 أبوها وهو يقول :

= أذاك سهيل وابن حرب وفيهما رضا لك يا هند الهنود ومقتنع  
 وما منهما إلا يعاش بفضلها وما منهما إلا يضر وينفع  
 وما منهما إلا كريم مرزأ وما منهما إلا أعز سميدع  
 فدونك فاختارى فأنت بصيرة ولا تخدعى إن الخداع يخدع

قالت: يا أبت ، والله ما أصنع بهذا شيئاً ، ولكن فسر لي أمرها ، وبين لي خصالهما ،  
 حتى أختار لنفسي أشدهما موافقة لي . فبدأ يذكر سهيل بن عمر ، فقال : أما أحدهما فوسطة  
 من العشيرة (أى من أوساطهم وخيارهم) وثروة من العيش ، إن تابعته تابعك ، وإن ملت  
 عنه حط إليك ، تحكين عليه فى أهله وماله . وأما الآخر ، فوضع عليه ، منظور إليه  
 فى الحسب الحسيب ، والرأى الأريب ، مدره أرومته ، وعز عشيرته ، شديد القيرة ، كثير  
 الطيرة ، لا ينام على ضمة ، ولا يرفع عصاه عن أهله . فقالت : يا أبت الأول سيد مضياع  
 للحره ، فاعست أن تلين بعد أبائها ، وتصنع تحت جناحه إذا تابعها بعلها فأشرت وخافها  
 أهلها فأمنت ، فسادت عند ذلك حالها وقبح عند ذلك دلالها ، فإن جاءت بولد أجمعت ، وإن  
 أنجبت فمن خطأ ما أنجبت ، فاطو ذكر هذا عنى ولا تسمه لي .

وأما الآخر ، فبعل الفتاة الخريده ، الحره العفيفة ، وإنى للى لا أريب له عشيرة  
 فتغيره ولا تصيبه بذعر فتغيره ، وإنى لأخلاق مثل هذا الموافقة ، فزوجنيه ، فزوجها من أبى  
 سفيان فولدت له معاوية وقبله يزيد . « (تحقيق)